

فلسطين من النكبة إلى الدولة ثمرة النضال الفلسطيني

من النكبة إلى الدولة رحلة طويلة وشاقّة مزروعة بظلم تاريخي صنع ثورة عارمة، وبآلام مُبرّحة ولدت صموداً أسطورياً، وبمُعانة مُمّضة أنجبت نضالاً عنيداً وجهاداً مُشرفاً.

بقيت المنطقة العربية تتلقّى تداعيات النكبة لسنواتٍ طويلة من الزمن، منها ما أطاح بأنظمةٍ عربية، ومنها ما أشعل أحداثاً دامية، ومنها ما ربّب أعباءً ثقيلة على حساب استقرار المنطقة وهنائها ونموّها. أمّا الهدف فلم يكن التوصل إلى دولة، أي دولة. فلو ارتضى الشعب الفلسطيني العظيم لنفسه أيّ دولةٍ لحظي بها بقرار الأمم المتحدة تقسيم فلسطين في نهاية الانتداب الانكليزي، أو بالاستسلام للمشروع الصهيوني قبل عقودٍ من الزمن عندما وقّعت دول عربية في فُتح التسويات المُنفردة.

لم يكن هذا الشعب العظيم يكتفي بأقلّ من دولة في فلسطين تتمدّد من البحر إلى النهر. فكان الطموح الفلسطيني يُختصر بدولةٍ ديمقراطيةٍ تتسع للمسلم والمسيحي واليهودي. هذا ما أرادته الشعب الفلسطيني لنفسه، فيما أراد الصهاينة له وطناً مسخاً، لا يعدو أن يكون جرماً في فلك الكيان الصهيوني. أراد هذا الشعب لنفسه وطناً يجمع شتات أبنائه وأرادوا له اسماً على غير مُسمّى، رقعة من أرضه تحتبس آماله وأحلامه وتطلّعاته، مُغلقة في وجه مئات الألوف من أبنائه المُشرّدين في طول العالم وعرضه.

بعد ثورة على الانتداب، وانتفاضة على الاحتلال، وانتفاضة مُتجدّدة على

الظلم والقهر والعدوان، يُلوّحون له اليوم بدولة، أيّ دولة. تتفتّق عبقرية أولئك الذين نصّبوا أنفسهم أسياد العالم بقوة الحديد والنار وجَبَرَتِ الدُولار، عن مشروع الدولتين المُتجاورتين: كيان صهيوني غاصب يكتنِز القوة الطاغية إقتصادياً وعسكرياً، إلى جانب دُويلةٍ عربية ركيكة تعيش على فتات الكيان الغاصب وتتنكّر لأبنائها المُشرّدين في زوايا الأرض الأربع، سوادهم الأعظم يبيت في الأكواخ والخيم ويقنات على البؤس والحرمان ويستشرف آفاقاً مسدودة.

رؤية الحلّ العادل أخذت مع الوقت تَضمر، ومع كل جولة بين العرب والغاصبين أخذ الأفق يضيق، حتى أضحي الحلم لا يتعدى العودة إلى الوضع الذي كان عشية حرب العام ١٩٦٧. التسويات المعقودة سابقاً بين دول عربية وإسرائيل، وكذلك مشروع التسوية المُسمى مُبادرة سلام عربية، كُلها من شأنها في أحسن الاحتمالات إعادة الوضع في المنطقة إلى ما كان عليه عشية حرب العام ١٩٦٧، معطوفاً على تطبيع العلاقات مع الدولة العبرية.

لو لم يكن للعرب قضية في فلسطين قبل تلك الحرب لما كانت تلك الحرب أساساً. لو كانت القضية، كُله القضية، في العودة إلى حدود العام ١٩٦٧ لكان التساؤل مشروعاً: لماذا لم تُعقد التسوية آنذاك قبل احتلال الأرض وقبل أن تغدو الأرض المحتلة جِراء تلك الحرب مطلباً مصيرياً لا بل أقصى الطموح؟

الحُكّام العرب لا يملكون أكثر من هذا الطموح، أي استعادة القدس العربية والأرض التي تحتلّها المستوطنات اليهودية والاعتراف للاجئين بحق العودة إلى ديارهم. ولكن مشروع خريطة الطريق الذي تطرحه الإدارة الأميركية، بالاتفاق مع روسيا والاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة، قاصِر عن بلوغ هذه المرامي، إذ يترك أمر بتّها للتفاوض بين الفلسطينيين والصهاينة في المرحلة الثالثة والأخيرة من الخطة، بعد أن يكون قد تمّ القضاء على الانتفاضة نهائياً في المرحلة الأولى منها، فلا يعود في يد المُفاوض الفلسطيني أيّ ورقة يُمكن أن يُفاوض عليها، علماً أنّ الانتفاضة، وهي الوجه الآخر لأمن إسرائيل، هي الورقة الوحيدة المُتبقيّة في يد المُفاوض الفلسطيني. وإذ يدخل الفلسطيني حلبة

التفاوض من غير أوراقٍ تفاوضيّة لن يكون المُفاوض الإسرائيلي مُضطرّاً لاستجابة أيّ مَطْلَبٍ من المطالب الفلسطينيّ. بهذا المعنى يبدو مشروع خريطة الطريق مشروعاً لتصفية قضية فلسطين على الشروط الإسرائيلية، أي مشروع استسلام فلسطيني.

من المُفترَض أن يصرّ الجانب الفلسطيني على إجراء المُفاوضات مع إسرائيل في ظلّ استمرار الانتفاضة أي في المرحلة الأولى. فالدولة العظمى لم تَجِدْ عُضاضة في التفاوض مع الثوّار الفيتناميين في ظلّ احتدام المقاومة في السبعينات من القرن الماضي، فلماذا لا يجوز في فلسطين ما كان جائزاً في فيتنام؟ إذا تمّ ذلك، أي في حال جرى التفاوض في ظل استمرار الانتفاضة، فسيفاوض الفلسطيني من موقع القوّة وفي يده ورقة الانتفاضة، أي ورقة أمن إسرائيل. هكذا يضمن الفلسطيني التوصل إلى حلّ عادل لقضيّته، ويضمن عودة اللاجئين إلى ديارهم، ويضمن استعادة كل الأراضي التي تحتلّها المستوطنات اليهودية، ويضمن قيام دولة فلسطينية عاصمتها القدس. قال شارون إنّ لديه مائة ملاحظة على مشروع خريطة الطريق، فلتكن للفلسطيني هذه الملاحظة على الأقل، أي التفاوض في ظلّ الانتفاضة.

وعندما نتحدّث عن دولة فلسطينية عاصمتها القدس لا ننسى أنّ الدولة التي كان يطمح الفلسطيني إليها دوماً هي دولة ديمقراطية على امتداد أرض فلسطين التاريخية: أي من البحر إلى النهر، وتضمّ المسلم والمسيحي واليهودي. إلّا أنّ إسرائيل ترفض هذا الطرح رفضاً قاطعاً من مُنطلق الحرص على طابع إسرائيل اليهودي. وهي لا تخفي برّمها بوجود عددٍ لا يُستهان به من عرب فلسطين داخل الحدود الإسرائيلية، مُعدّل التكاثر بينهم أعلى من مُعدّل نمو المجتمع اليهودي في إسرائيل.

أميركا تُعلن أنّها ستجعل من العراق أنموذجاً ديمقراطياً يُعمّم على المنطقة العربية من أقصاها إلى أقصاها. والأنموذج الذي تُريده أميركا للعراق وسائر الدول العربية فعلياً ليس ديمقراطياً، بل هو نظامٌ مكتوبٌ له أن يكون دميّة في

يُدها. أمّا الأنموذج الذي نُريده نحن للعراق ونُريده لفلسطين ومن ثم لسائر الشعوب العربية، فهو حكم الشعب لذاته بِذاتِهِ، وهذا تعريف الديمقراطية الحقيقية.

يوم تتحرّر فلسطين بالمقاومة الشريفة للاحتلال سيكون الشعب الفلسطيني العظيم قد اكتسبَ شرعيةً حُكم ذاته بِذاتِهِ. فهو الذي يكون قد حقّق حُرّيته بيده، ويكون تالياً قد استحقّق حُكم ذاته بِذاتِهِ. فإذا ما سار الشعب العراقي على هذه الطريق، أي طريق المقاومة الشعبية للاحتلال، فسيكون هو أيضاً قد حرّر نفسه بنفسه، ويكون تالياً قد اكتسبَ شرعيةً حُكم ذاته بِذاتِهِ.

الحرية المنتزعة بالمقاومة الشعبية هي التي تُولّد الديمقراطية الحقيقية. هذا هو الأنموذج الذي نُريده لفلسطين ونُريده للعراق ونُريده من ثم لسائر الشعوب العربية.

وإذا كانت المقاومة تُشَنّ في فلسطين والعراق ضدّ الاحتلال، فالنضال في سائر الأقطار العربية يجب أن يكون في وجه أنظمة القهر والقمع والكبت، مع الفارق أنّ النضال الذي نُريده لسائر الشعوب العربية من أجل التغيير يجب أن يُمارس بالوسائل السلمية كالتظاهر والاعتصام والتعبئة الإعلامية والعصيان المدني.

هكذا تكون فلسطين قد اجتازت طريقاً طويلةً وشاقّةً بين النكبة والدولة، من نكبةٍ لِحَقّت بالعرب أجمعين إلى دولةٍ تُجسّد الأنموذج العربي للديمقراطية الذي يَخْتَصِر طريق العرب إلى العِزّة والكرامة والتقدّم والنمو. فلا منجاة للعرب من حال التخلف والتخبط والعقم والتشرّد التي يتخبّطون فيها إلّا بالديمقراطية الحقيقية، التي نرجو أن تنبُت من فلسطين والعراق. ونحن نعتقد أنّ الديمقراطية ستكون سبيل العرب حتى إلى الإتحاد. فالإتحاد لا يَسْتَقِيم إلّا إذا جاء مُعبراً عن إرادة الشعوب الحرة، وهذا لا يكون إلّا من خلال الممارسة الديمقراطية الفاعلة.

ومن المفروض أن تستمر مقاطعة إسرائيل عربياً، على المُستوى الشعبي،

حتى بعد قيام الدولة، وذلك حتى عودة اللاجئين الفلسطينيين، كُـل اللاجئين،
إلى ديارهم في فلسطين، كُـل فلسطين.
هكذا تكون ثَمرة النضال الفلسطيني الطويل على مُستوى التضحيات التي
بُذلت في هذا النضال المُشرف.

[بيروت - أوتيل الكومودور في ١٥/٥/٢٠٠٣]